الدبلوماسية والسفارات في الإسلام

كانت الدبلوماسية في الجاهلية مقصورة على إيجاد العلاقات الودية بين القبائل المجاورة ولغرض التجارة، وكانت تتم بالأسفار والانتقال والقوافل والتجارة وبالاجتماع في الأسواق ومواسم الحج، وأشهر العلاقات وهوسير الوفود إلى ملوك فارس والحيرة وغسان وحمير.

ولما جاء الإسلام تطورت الدبلوماسية الإسلامية وتطورت أهدافها وأساليبها، واتخذها النبي ﷺ قبل الهجرة من مكة إلى المدينة أسلوباً لنشر الدعوة الإسلامية، وتتجلى هذه الدبلوماسية فيما أرسله النبي ﷺ من كتب وما أوفده من بعوث إلى القبائل العربية، وإلى ملوك الدول المجاورة للدعوة إلى الإسلام.

ويعد عصر الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبي ﷺ؛ إذ ظلت الدبلوماسية وسيلة للدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته، وعقد المعاهدات بين ممثلي الأقطار والمدن الداخلة تحت لواء حكم الخلفاء الراشدين. وكذلك الحال في عصر الدولة الأموية كانت الدبلوماسية لغرض الدخول في الدين الإسلامي أو لتحقيق سلام أو عقد هدنة أو دفع جزية. أما في العصر العباسي فأصبحت الدبلوماسية وسيلة لتبادل العلاقات الودية بين الدول وغيرها، وتعددت أغراض السفارات حتى أصبحت وسيلة لتقوية الصلات التجارية والثقافية وعقد المعاهدات، وحتى تعددت السفارات بين الدول الإسلامية والدولة البيزنطية ودولة الفرنجة والهند والصين.

وأنشأ عبد الرحمن الداخل أول خلفاء المسلمين في الأندلس علاقات دبلوماسية مع دول الفرنجة تأكيداً للروابط الثقافية والسياسية والاجتماعية علاوة على حسن الجوار(١).

وكان السفير يمثل الخليفة ويتكلم باسمه ويفاوض عنه، ويبرم المعاهدات بدلاً منه، وكان السفراء يختارون على أقصى غاية في الدقة بحيث يكون السفير ذكياً، ومتصفاً بصفات خلقية وعقلية، وأن يكون واسع الثقافة، ذا رأي نافذ وحصيف العقل يجعله يستنبط غوامض الأمور ويستشف سرائر القلوب ، ويجب أن يكون فصيحاً ليعجب السامع بحديثه وبسحره وبحلاوة لسانه، ثم ليكون كلامه ممتعاً أنيقاً يوصل إلى الهدف المطلوب.

وقد أدرك المسلمون منذ القدم شرف السفارة وأقدار السفراء، فاختاروهم من الشخصيات المبرزة ذات المكانة الرفيعة في العلم والأدب والرجاحة والحصافة وسرعة البديهة وحسن التصرف، ليكونوا أقدر على تمثيل الخلفاء والأمراء والرؤساء واختير كثير من القضاة والفقهاء والعلماء لأعمال السفارات. كما انتخب من موظفي الدولة كالوزراء والكتاب والأطباء من يصلح لمهام الوفادة.

وكان الخلفاء يرشحون السفراء ويزودونهم بكُتَّاب من أجل مهمتهم.

وقد امتد نشاط السفراء العرب إلى غربي أوربا حين بعث شارلمان

(١) د/ عز الدين فراج ، المرجع السابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

امبراطور الدولة الرومانية بسفارة إلى هارون الرشيد يوصيه برعاية حجاج بيت المقدس.

وفي الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر تقرب إليه ملوك الأسبان والافرنج بالطاعة والولاء، وأرسلوا إليه رسلهم وهداياهم من روما والقسطنطينية للمهادنة والسلم، وحضر إلى بابه بعثات من ملوك الأسبان المحاربين لبلاده، فقبلوا يد الخليفة والتمسوا رضاءه وساروا في موكبه فكانت هذه البعثات الدبلوماسية من ملوك وأمراء أسبانيا سبباً في استتباب السلام من مدة من الزمن.

وكان السفير يزود بجواز سفر أو ورقة طريق، فالمسلمون هم أول من وضع الباسبورت (جواز سفر). ولو تأملنا ما يتبع الآن في الدبلوماسية وتبادل السفراء والبعثات لم يخرج كثيراً عما اتبعه الخلفاء في أيام سلطانهم ومجدهم. وبذلك أصبح كثير مما اتبعه المسلمون موضوع تنفيذ الآن[1].

ثانياً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاجتماعية:

يتألف المجتمع الإسلامي من طبقات يقوم على رأسها الخليفة ثم أفراد أسرته ويليه كبار الموظفين، وبهذا يتكون المجتمع من الطبقات الآتية:

١ ـ الطبقة الحاكمة وتشمل الخليفة وكبار الموظفين وأتباعه.

٢ ـ الطبقة العليا وتشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع.

---

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

٣ ـ الطبقة الدنيا وتشمل الفلاحين والرعاة والحمالين والسقائين والرقيق.

٤ ـ الطوائف الأخرى: النصارى واليهود والصابئة.

وقد استطاع الإسلام أن يوحد بين الأجناس المختلفة ومزجها معاً في بوتقة الإسلام والعروبة(١).

واهتم الإسلام بالمرأة وكرمها وكان لها نصيب في المجتمع الإسلامي مثل زبيدة زوج الرشيد التي شاركت الخليفة مجده وعظمته وكذلك علية والعباسة ابنتا المهدي وكانت علية قدوة النساء في اتخاذ العصابة المطرزة بالجوهر، وكذلك العباسة كانت بطلة نكبة البرامكة. وهناك شاعرات ومغنيات مثل محبوبة جارية جعفر المتوكل وكانت بارعة في الفنون والأدب.

ولقد نادى الإسلام بحق المرأة في ممارسة حقوقها المدنية والعمل في التجارة والصناعة.

كما أن الإسلام نادى بالمساواة بين البشر وعلى حرية الرأي والعقيدة والتسامح والعدل والخير وحسن المعاملة والرحمة والإحسان(٢).

وقد انتقل كثير من العادات الكريمة كالأخلاق والتسامح والفروسية والشجاعة والمروءة إلى أوربا.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١١٢ ـ ١١٤.

(٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، جـ ١، ص ٥٨ ـ ٦٣.

ثالثاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الثقافية:

اهتم الإسلام بالعلم وحث على طلبه وكرم أهله، ومما ساعد العلماء العرب على التفوق العلمي ستة عوامل:

١ ـ حث الدين الإسلامي على طلب العلم كما جاء في القرآن والسنة.

٢ ـ حرية الرأي العلمي فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي .

٣ ـ رعاية الخلفاء والحكام والولاة للعلم وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال.

٤ ـ استعلاء العلماء كلهم وزهدهم عن الترف والسلطان.

٥ ـ الاستعداد الذهني مع الصبر والمثابرة حتى أن أعمال العالم منهم يعد بالعشرات والمئات في معظم الأحيان.

٦ ـ الظروف المهيأة لسطوع الحضارة العلمية في العصر الإسلامي حيث أتاحت للأمة العربية الإسلامية أن تقدم نهضة الحضارة الأوربية.

ومهما يكن من أمر فقد كان للعربي عقيدة وفلسفة، وكان للعرب نظام حكم أشاع روح العدل والانصاف والتسامح فتعايش الناس من ذوي العقائد المختلفة والأجناس يسودهم الأمن والسلام فتجاور المسجد والكنيسة في كل قطر بل في كل مدينة، وظل هذا الوضع زمناً طويلا بسبب روح الإخاء والتسامح التي سادت بين الجميع. فقد تربى المسلمون على هذا التعايش والامتزاج. وفتحوا صدورهم للنصارى واليهود الذين درسوا في الجامعات الإسلامية، وحملوا كل آثار العرب وعلومهم إلى أوربا.

ومن أهم مظاهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي[١]:

١ ـ كانت المساجد مكاناً للعلم ثم شهدت قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمكتبات حلقات العلم والتدريس.

٢ ـ كانت الصالونات الأدبية والعلمية مكانا لاستقبال الراغبين في العلم، وهي تشبه الجلسات العلمية. وقد ازدهرت المجالس العلمية في شتى العصور.

٣ ـ خصص الخلفاء قصورهم أماكن للعلم ورعوا العلم، وأقاموا الدور والمساكن والمقاصير للتدريس وإقامة الحلقات العلمية والمناظرات.

٤ ـ يعتبر عصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية في تاريخ النهضة العلمية بالعالم الإسلامي؛ إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلم والعلماء. واختار أصحابه ورجال الدولة من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب.

٥ ـ انتقلت مجالس العلم وصالونات الأدب والاجتماعات العلمية من قصور الخلفاء والمساجد إلى المدارس، فقد ازداد الإقبال على هذه الحلقات، مما تعذر عقدها في المساجد والأماكن الأخرى.

٦ ـ انشئت المدارس في بادئ الأمر لتعليم العلوم الدينية ، ثم عرفت العلوم الدنيوية كالطب وغيره. وكان بالمدرسة صالة كبيرة وقاعة محاضرات، ومساكن للأساتذة والطلاب، وتلحق بها المرافق

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

العامة. ومن أهم المدارس المدرسة النظامية، نسبة إلى نظام الملك في العراق وغيرها من المدن الأخرى.

٧ ـ اهتم المسلمون بإنشاء المكتبات العامة ومن أهمها بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة. وكانت هذه المكتبات تؤدي ما تؤديه معاهد العلم والجامعات والجمعيات العلمية في الوقت الحاضر(١).

٨ ـ اهتم الخلفاء المسلمون بإرسال البعثات العلمية منذ صدر الإسلام، حين تفوق علماء الصحابة في الأقطار، وأقام كل منهم مركزاً علمياً في البلد الذي حل فيه، فحلقة في اليمن، وثانية في الكوفة، وثالثة في مصر، ورابعة في البصرة وخامسة في المدينة وهكذا، وأصبح لكل مدرسة طابعها المميز. فكان الناس يستمعون إلى حلقات هؤلاء الأساتذة للانتفاع بعلمهم.

٩ ـ وإلى جانب دور المكتبات انتشرت محال الوراقة كمراكز للعلم والثقافة؛ إذ كانت تعمل في نسخ الكتب وتجويد الخط، بالإضافة إلى أهميتها كمراكز أدبية، وكان في بغداد في عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م أكثر من مائة من محال الوراقة.

١٠ ـ كان للأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية دورها في الحركة الثقافية، وظهر فضل العرب بشكل واضح في الشعر، وظلت

(١) د/ عبد الحليم منتصر، المرجع السابق، ص ٤٩ ـ ٦٢.

الثقافة افي العالم الإسلامي ذات طابع عربي وذات صلة وثيقة بالحياة والتقاليد العربية. وكان الفرس من العناصر البارزة في الحركة الثقافية، كما كان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة دورهم في حركة الترجمة التي كان لها أثرها في تطوير الثقافة الإسلامية(١).

١١ـ اهتم المسلمون بترجمة الكتب الفارسية والسريانية واليونانية إلى اللغة العربية، وكان من أوائل المترجمين أبو يحيى البطريق الذي ترجم عن اليونانية، وحنين بن اسحق شيخ المترجمين وهو من نساطرة العرب، وأعلم أهل عصره في الطب. ومنهم أيضاً يوحنا بن ماسويه وهو معلم حنين بن اسحق، ثم جرت بعد ذلك حركة الترجة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر في بعث روح النهضة في أوربا.

١٢ ـ صار للمدرسين دور سياسي إلى جانب وظيفتهم التعليمية، فلم يقتصر المدرسون على أن يكونوا مجرد معلمين فحسب، بل صارت لهم أهميتهم في مجال السياسة الداخلية والخارجية، كما كان يختار منهم رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم، كما كانوا بمثابة مستشارين للولاة والأمراء. وازداد نفوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبي والروحي، فعظمت منزلتهم بين الناس، ومن ثم استطاعوا أن يوجهوا الرأي

(١) د/ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٣ ، ص ١٠٥٣ .

العام، فعنوا بتأسيس المدارس وتقريب المدرسين حتى يضمنوا كسب الرأي العام واستقرار الأمور، وانتصار المذهب السني وبالتالي سلطانهم السياسي(١).

١٣ ـ أسس السلطان ـ نظام الملك ـ سلطان الدولة السلجوقية مدارس في أنحاء الدولة في بغداد والبصرة وأصفهان والموصل وغيرها، وكانت هذه المدراس تسمى بالنظامية نسبة إليه. وانتشرت المدارس في خراسان والعراق وآسيا الصغرى على نمط المدرسة النظامية. وتولى نور الدين محمود إنشاء المدارس في الشام والجزيرة؛ فأسس المدرسة النورية في دمشق وتأسست مدارس أخرى في حلب وحماة وبعلبك وحمص، والبصرة وكان يفد إليها العلماء من بغداد ونيسابور وقرطبة وغرناطة ومراكش.

وفي عصر الفاطميين أسس صلاح الدين المدرسة الناصرية (الشريفية) ثم توسع صلاح الدين في إنشاء المدارس فأنشأ المدرسة الصلاحية ومدارس أخرى في مصر، وأسس في سوريا مدارس كثيرة.

غير أن حركة بناء المدارس قد استمرت حتى أواخر الخلافة العباسية. وأشهر هذه المدارس المدرسة المستنصرية التي أنشئت في بغداد لتدريس المذاهب الأربعة. وهي أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة وكان بها الجامع.

ثم ازدهرت المدارس في عصر المماليك ومن بعدهم العثمانيون.

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥

وانشئت المدارس في غرب العالم الإسلامي، فقد انشئت المدارس في قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وملقا وغيرها. ومن أهم المدرسين القاضي عياض. واهتم بنومرين ببناء المدارس في بلاد المغرب وخاصة في مدينة فارس، ومن أشهرها مدرسة الصهريج ومدرسة العطارين وغيرها. وفي شرق العالم الإسلامي سار المغول على نهج السلاجقة والعباسيين فأنشأوا المدارس في بلادهم(١).

وإذا كانت المدارس هي معاهد الدراسات التخصصية والعليا فقد عرف العالم الإسلامي معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث وهي المعروفة بالكتاتيب.

١٤ ـ كما آمن علماء المسلمين بفكرة التخصص، فقال ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنا واحداً» كذلك امتدح العلماء التركيز ونادوا بالابتعاد عن المقدمات والاستطراد. ثم أن القرآن نص أولئك على أن الطبيعة مصدر هام من مصادر العلم، وبذلك فتح الإسلام الباب على مصراعيه للبحث في هذا الميدان بحثاً تجريبياً واقعياً(٢) وأدى ذلك إلى ظهور المذهب التجريبي. وعنه أخذ الأوربيون ونقلوه عن العرب من أجل الوصول إلى الحقيقة.

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) عباس العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٩٨ ـ ٩٩.

رابعاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاقتصادية:

١ ـ الزراعة:

حظيت الزراعة بكثيرمن العناية، فمن المعروف أن الزراعة تزدهر في ظل الحكومات القوية التي تعمل على توفير مياه الري واستصلاح الأراضي وتيسير نقل المحاصيل.

وقد عملت الدولة على إصلاح الأراضي وحفر القنوات والترع القديمة ونقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين ولايات الدولة.

واشتهرت الدولة الإسلامية بزراعة الحبوب والفواكه والقطن والأزهار والخضروات والنباتات والحشائش (كمصدر للأدوية والعقاقير). وأدخل العرب تحسينات جمة على طرق الحرث والغرس والري، وهذا ما جعل الأندلس في عهدهم جنة الدنيا[١]. وقد نقل الأوربيون الكثير من الزراعات وطرق الري إلى أوربا.

٢ ـ الصناعات:

مارس المسلمون كثيراً من الصناعات ومن أهم هذه الصناعات العمارة، فقد ترك المسلمون آثار كثيرة من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وقلاع وحصون وقصور وأسواق وأسوار مدن وأربطة ومساكن وغيرها.

(١) د. عز الدين فراج، المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٦٠.

كما شقوا الطرق وعبدوها وشقوا القنوات وشيدوا القناطر، وتتميز العمارة الإسلامية بميزات خاصة كالمآذن والقباب والعقود والأعمدة والمحاريب، ومن أهم العناصر المعمارية الإسلامية المقرنصات وهي أشكال زخرفية على شكل محاريب صغيرة وتتم زخرفتها بالخشب والمعدن.

واهتم المسلمون كذلك بصناعة النسيج التي ارتقت وتقدمت في العصر العباسي، ووجدت أنوال للنسيج تشرف عليها الدولة، وكان يطلق عليها اسم الطراز ومن أهم مركز صناعة النسيج في مصر: دمياط والأسكندرية والفيوم. وكان القطن والكتان ينسجان في مراكز الصناعة المصرية، كما كانت مراكز النسيج في العراق متقدمة كذلك في إيران وأسبانيا[١].

ومن الصناعات الأخرى صناعة الزجاج وصناعة الفخار والخزف، وازدهرت صناعة المعادن في العالم الإسلامي ازدهاراً كبيراً، واشتهرت صناعة السيوف والرماح والخناجر والدروع والتروس وغيرها. وكذلك صناعة الحلي بمختلف أشكالها. و عنى المسلمون بضرب النقود وسكها من الذهب والفضة والنحاس في العملة الرئيسية؛ الدينار من الذهب والدرهم من الفضة[٢].

واشتهر المسلمون بصناعة الخشب المطعم بالعاج وصناعة الزجاج والبلور الصخري كالمصابيح وصناعة الجلود وصناعة السجاد وصناعة الورق وصناعة الحرير وغيرها.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١٦٢ - ١٦٧.

(٢) المرجع السابق.

٣ ـ التجارة والمواصلات :

انتعشت التجارة في الدولة الإسلامية، فقد حدث ازدياد مطرد في التجارة في الدولة العباسية سواء في التجارة الخارجية أو الداخلية.

وفي مجال التجارة الخارجية كان للعالم الإسلامي علاقات تجارية مع غرب أوربا وشمالها، ومع الشرق الأقصى، ومع القارة الأفريقية. وكانت العلاقات التجارية مع غرب أوربا تقوم على تصدير الرقيق إلى العالم الإسلامي، وكان الرقيق يجلب إلى الموانئ الفرنسية ثم يحمل منها إلى العالم الإسلامي.

وقد ظل التبادل التجاري مستمراً بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية ومع شمال أوربا، حيث كانت الدول الأسكندنافية تصدر الفراء للعالم الإسلامي، وكان العالم الإسلامي يستورد الحرير من الصين والفيلة والتوابل والأخشاب من الهند، كما كانت القارة الإفريقية تصدر الى العالم الإسلامي الذهب والأبنوس والعاج.

أما التجارة الداخلية فكانت تعتمد في انتقالها إما على الطرق البرية وإمّا على الطرق المائية من أنهار وقنوات وبحار. ويلاحظ أن العرب اهتموا بالطرق كوسيلة للمواصلات ونقل المتاجر وسير القوافل، فعنوا بتزويدها بالقصور أو منازل الاستراحة، وحفروا الآبار والعيون لإمداد المسافرين بالمياه اللازمة، ولاشك أن العناية بالطرق تعتبر في الإسلام من الواجبات الدينية لاستخدامها في الحج إلى بيت الله وزيارة المسجد النبوي الشريف.

٤ ـ الفنون الإسلامية :(١)

نشأت الفنون الإسلامية حول محورين هما : المسجد والمصحف، فاهتم المسلمون ببناء المساجد من الناحية المعمارية والزخرفية والعناية بأثاث المسجد والرغبة في تجميله. كما اهتم المسلمون أيضاً بالمصحف وتكونت حوله أنواع أخرى من الفنون الإسلامية، ومنها فنون الخط وتذهيب المصحف وتزويقه وتجليده.

وظل هذان الأساسان عاملي توحيد في الفنون الإسلامية التي استوحت روح الإسلام وتعاليمه، وتأثر الفن الإسلامي بالرغبة في تجميل الحياة. فقد بلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة لايدانيه أي فن آخر.

ووجد في مصر الفن الفاطمي ثم الطراز الأيوبي ثم الطراز المملوكي، كما وجد في الأندلس فن أندلسي (الطراز الأموي الغربي). أما في مشرق العالم الإسلامي فقد حل الفن السلجوقي. وقام في إيران الطراز المغولي ثم الطراز الصفوي وقام في الهند طراز هندي إسلامي وفي آسيا الصغرى طراز آخر(٢).

ويرجع الفضل في نشأة بعض الفنون الأوربية إلى الفن الإسلامي، مثل الفن القوطي : وكان لمجيء الحجاج الأوربيين إلى فلسطين أثر كبير في تبادل العناصر الفنية بين العالم الإسلامي وأوربا.

---

(١) د/ حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ ـ ١٣٥ .

(٢) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٦ ـ ١٤٦ .

ومن أهم الفنون التي ازدهرت في العالم الإسلامي الخط العربي أو الكتابة العربية التي تطورت كثيراً بعد ظهور الإسلام. وأصبحت هناك أشكال كثيرة من الخطوط من أهمها الخط الكوفي وخط النسخ والخط الفارسي والخط الهمايوني والثلث والديواني والرقعة[١].

وهناك جانب آخر من الفنون الحسية كان للمسلمين فيه فضل على الغرب الأوربي ، ونعني به الموسيقى. وقد أثر العرب في الموسيقى الغربية وتطورت بفضل علماء المسلمين في هذا المجال. وقد ظهر أثر العرب في السلم الموسيقى الذي اعترف علماء الموسيقى في الغرب بفضل العرب في هذا المجال وخاصة المدرسة الموسيقية في بغداد. كما ازدهرت الموسيقى العربية بالأندلس، فوفد الطلاب الأوربيون إلى قرطبة حيث ترجموا كتابات العرب في علم الموسيقى إلى اللاتينية، كما عرف الأوربيون كثيراً من الآلات الموسيقية عن طريق مسلمي أسبانيا، وقد ترك العرب بصماتهم واضحة بوجود عدد من المصطلحات والأسماء الموسيقية التي نقلها الغرب إلى لغاته فلفظ Guitar مأخوذ من قيثارة وRibik مأخوذ من رباب و Naker من النقارة وKanoon مأخوذ من القانون وغيرها[٢].

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٦-١٥٩ .

(٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام ، جـ٣ ، ص ٣٠١-٣٠٢